الفصل الأول

بين يدى الإسراء والمعراج

سيدنا رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، معجزة التاريخ وهو المنارة التى يهتدى بها الإنسان كلما انبهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .

وحياته قبل البعثة كحياته بعدها : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ﷺ قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى . يكاد يعتقد أنه اقتنص الوحى اقتناصاً واضطره إلى النزول اضطراراً وأنه أبى إلا أن يظفر بما يريد فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله بالنبوة والرسالة على العالمين ، عندما حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية ، لتتجلى بالهداية عن طريق من اختارته رسولا .

يقول الإمام المراغى رحمه الله . :

« النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها : القادر على حمايتها » .

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

ومحمد ، ﷺ ، أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه : أحمره وأسوده ، وإنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يختم به الأنبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات[1] .

أما هذا الإعداد : فقد حاطه الله بعنايته التامة ، إنه أعده من ناحية أسرته : أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع ، رضى النفس ، سخى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث » .

وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً . . [2] .

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز عن بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز ، فلم يكن يصدر فى

---

(١) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

(٢) انظر كتاب : « على هامش السيرة » .

حياته – كما كانوا يصدرون – عن الروية والتفكير ، وطول التدبير ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب فى الحياة قوة خفية ، يحسها ويأبى عليها ، ويغلو فى الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ويصدع بأمرها .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل ، بيِّن الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر .

وكان فى هذا الصوت غموض ، وكان فى هذا الصوت إبهام ، وكان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام ، وكان الفتى ينكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه ، وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس غريبة المعنى »[1].

أما والده – عبد الله – فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره :

(١) انظر كتاب : «على هامش السيرة» .

« أما الحرام فالممات دونه »

وتقول له فاطمة الخثعمية :

« إنى لأعرف فيك نسك أبيك » .

قبيلته : قريش ، وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبدالمطلب ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده : عبد الله ، فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يمنحه النبوة .

أجل ! وهذه الفترة من حياته ، التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الحزن ، وفيه الرجاء ، وفيه الكثير من الأمل الوثاب ، الذى يشحذ العزيمة ويسد على اليأس القانط كل منفذ .

إن هذه الفترة من حياته كانت — على حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف — عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام جهاده الروحى المتصل بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، أو شبه المطلق عن كل ما سوى الله . وهناك فى سجوة الليل ، أو فى رائعة النهار يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب : فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين ، أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته

وكبريائه وجلاله .

ها هو ذا الرسول ، ﷺ ، يبذل مجهوداً جبّاراً ، لا يكاد الإنسان يتصوره ، فضلا على أن يأتى بمثله .

وها هو ذا يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه فضلا على أن يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق ، وعثاء صعبة المرتقى . . بيد أن ذلك كله : لم يكن إلا ليزيده عزماً على عزم ، وإرادة على إرادة ، ونشاطاً مضاعفاً .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور عن جهاد النفس لتتزكى .

وتمضى السنون بطيئة سريعة فى آن واحد ،وجهاد الرسول ، ﷺ ، لا يفتر حتى أصبح – أوكاد – روحاً خالصة أو قبساً من نور الله وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالى إنه :

« أول حال رسول الله ، ﷺ حين أقبل على جبل حراء ، حيث تبتل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ .

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك

الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم) [1]

ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه – فى التحنث – خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتمس أثناءها الوسيلة التى يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طول شهر رمضان من كل سنة يقيم به ، مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ممعنا فى التأمل والعبادة ، بعيداً عن ضجة الناس ، وضوضاء الحياة ، ملتمساً الحق . والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لقد كان ينسى طعامه ، وينسى كل ما فى الحياة ، لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ، ليس حقاً.

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيمانا بما رأى فى رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه . . وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة : وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى

---

(١) سورة العلق ١ / ٥ .

تيهاء الضلال .

وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ، يرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له فى رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسرَّ بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به ، فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه .

ولم يدر بخاطرها ولا بخاطره : أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم : يوم الوحى الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة .

وفيما هو نائم بالغار يوماً ، جاءه الملك وفى يده صحيفة ، فقال له : « اقرأ » [1] .

كانت « اقرأ » مفتتح عهد جديد فى حياة الرسول ﷺ ، فمنذ تلك الآونة لم يترك رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهاراً وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته .

يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد – وكان جاهلياً أسلم – يقول :

---

(١) من « حياة محمد » للدكتور هيكل .

رأيت رسول الله ، ﷺ ، بصر عيني بسوق ذى المجاز يقول :

« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » .

ويدخل فجاجها والناس متقصفون[1] عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً ، وهو لايسكت يقول :

« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله ، ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافى المواسم كل عام يتبع الحجاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره ، أو رئيساً يجيبه ، حتى إنه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً فى الجنة » .

وكانت قريش تقف فى وجه انتشار الدعوة معارضة لها ، ومنكلة بمن يعتنقها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ولكن الدعوة كانت تنتشر شيئاً فشيئاً ، كان يعتنق الإسلام من تحرّر من رق العادة والإلف ، ومن طلب الحق والرشاد ، ومن يصبر على إيذاء قريش ، ومن لاتؤثر فيه دعاية القرشيين .

---

(١) أى مجتمعون عليه .

ونذكر من هذا مثالين :

١ – كان ضماد رجلا من أزد شنوءة تخصص فى معالجة الأمراض العقلية ، كان يعالج بالرقى ، ويعالج بالإيحاء ، ويعالج باللمس والدعاء ، وكانت مكانته فى ذلك الزمن مكانة من نسميهم نحن فى العصر الحاضر بالأطباء النفسيين .

ويذكر الإمام مسلم والإمام البيهقى قصته :

لقد قدم ضماد مكة ، فسمع سفهاء مكة يقولون :

إن محمداً مجنون .

سمع هذا الخبر هنا وسمعه هناك ، وعلم من الجو الاجتماعى ، ومن الأخبار الكثيرة أهمية محمد القصوى فى هذه المدينة .

وصدق ضماد واهتم بها اهتماماً كبيراً ، وخيل إليه أنه إذا عالجه فقد اكتسب شهرة واكتسب مثوبة ، فقال : أين هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدى ؟

ثم يقول :

فلقيت محمداً فقلت :

إنى أرقى من هذه الرياح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء فهلم .

أى أنه يدعوه إلى أن يستسلم له ليعالجه .

فقال له رسول الله ﷺ :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن

يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وتعلقت عينا ضماد برسول الله ، ﷺ ، وأنصتت أذناه وكان كيانه كله مرهفاً مبهوراً .

ثم قال :

والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء فما سمعت مثل هذه الكلمات ، ثم طلب من رسول الله ، ﷺ ، إعادتها ، وكان يسمع بجميع أقطاره .

ولم تكفه الإعادة فطلب من جديد أن يسمعها للمرة الثالثة ، ثم قال فور الانتهاء من سماعها :

هلم يدك أبايعك على الإسلام ، فقد بلغت كلماتك هؤلاء قاموس البحر .

ومعنى أنها بلغت قاموس البحر ، أنها تغلغلت إلى أعمق أعماق نفسه ، وامتزجت بباطنه امتزاجاً كلياً ، وذلك أن قاموس البحر هو أعمق مكان فيه .

ولم ينس المسلمون فيما بعد ضماد هذا ، فكانوا إذا مرت جيوشهم على قوم ضماد أحسنوا إليهم وقالوا فى مودة :

« إنهم قوم ضماد »

وكثيرا ما كانت تبلغ الدعوة إلى التوحيد قاموس البحر — على حد

تعبير ضماد – فلا يبالى من آمن بإيذاء المشركين .

٢ – وهذا أبو ذر الغفارى بلغت به كلمات التوحيد قاموس البحر ، فأعلنها على الملأ من قريش ، غير مبال بما يناله فى سبيلها من أذى .

ونترك الإمام البخارى يذكر قصة إسلامه :

روى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال :

لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه :

اركب إلى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء فاسمع من قوله ثم ائتنى .

فانطلق الآخر حتى قدم وسمع من كلامه ثم رجع إلى أبى ذر فقال له :

« رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعت كلاماً ما هو بالشعر» .

فتزود وحمل شنة [1] له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتى المسجد فالتمس رسول الله ، ﷺ ، ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل فاضطجع فرآه على ، فعرف أنه غريب .

فلما رآه تبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح .

ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، دخل ذلك اليوم ولا يرى النبى ﷺ ، حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه فمر به علىٌّ فقال :

---

(١) أى قربة .

أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟

فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء . حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد على على مثل ذلك فأقام معه فقال :

« ألا تحدثني بالذى أقدمك ؟

قال : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت .

ففعل فأخبره .

قال :

فإنه حق ، وإنه رسول الله ، ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء ، وإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى .

ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى ، ﷺ ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه .

فقال له النبى ﷺ :

« ارجع إلى قومك فأخبرهم ، حتى يأتيك أمرى » .

فقال : والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم .

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم قام القوم فضربوه حتى اضجعوه .

فأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجارتكم إلى الشام ؟

فأنقذه منهم . ثم عاد من الغد بمثلها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه . . .

كان المشركون كلما رأوا شخصاً يدخل الإسلام زاد نشاطهم ، واتخذوا كل ما يستطيعون من احتياطات حتى لا يدخل أحد بعد فى الإسلام ، وكان من احتياطاتهم :

١ – التنكيل والتعذيب والإرهاب بكل الوسائل .

٢ – الدعاية الكاذبة ضد محمد ﷺ .

٣ – الترغيب حيث لا يستطيعون الإرهاب ، أو حيث لا يكون الإرهاب مجدياً .

ولن نتحدث عن التنكيل والتعذيب الذى أوقعوه على المستضعفين أمثال :

بلال ، وعمار بن ياسر ، وسمية ، وأمثالهم .

ولن نتحدث عن الإرهاب الذى استعملوه مع رسول الله ، ﷺ ، ومع الأسرة الهاشمية ، ولكننا نعرف أنهم استعملوا مع رسول الله ﷺ وسائل الترغيب أيضاً فى أقوى وأخصب صورة .

وبينما كانت وسائل التعذيب بالمستضعفين من المسلمين تجرى على قدم وساق لا فتور فيها ولا هدنة ، إذا بوسائل الترغيب والإغراء تكال إلى رسول الله ﷺ كيلا .

وهذه صورة منها :

كان عتبة بن ربيعة سيداً فى قومه ، قال يوماً ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ، ﷺ ، جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ، ﷺ يزيدون ويكثرون .

فقالوا : يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ، ﷺ فقال :

« يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة والكمال فى النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ﷺ :

« قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخى

إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؟

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ؟

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ؟

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ؟

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ، ﷺ ، يسمع منه ، قال : أفرغت يأبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : أفعل .

قال :

(بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون .

وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون .

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إلهٌ واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون .

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون)[1] .

ثم مضى رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة : أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ، ﷺ ، إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال :

« قد سمعت يأبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » ؟

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا :

« ما وراءك يأبا الوليد » ؟

قال :

« ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به »

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

---

(١) فصلت الآيات : ١ – ٨ .

قد يقول قائل إنه لو عرض على محمد ، ﷺ ، هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .

هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الذى ترويه كتب السيرة .

ولقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث – أخو بنى عبد الدار – وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد ابن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام – عليه لعنة الله – وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه » .

« فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم . فجاء رسول الله ، ﷺ ، سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه ، وكان عليهم حريصاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له :

« يا محمد : إنا بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت

الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؟

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ؟

وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ؟

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك -- وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا - بذلنا لك من أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك ؟

فقال لهم رسول الله ، ﷺ :

ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم .

ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، أنزل على كتاباً وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

واستمر الأمر كذلك : ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء ، حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه وسلامه ، وكان الإسراء والمعراج ، فارتد من ارتد ، وثبت من ثبت .

كان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة .

وكان الفيصل بين الطائفتين : طائفة ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام مهما طال الزمن .

ما الإسراء والمعراج ؟

كيف حدثا !

وماذا تضمنا من مبادئ ؟

وما النتائج التى ترتبت عليهما ؟